الفنون وضمائر الشعوب

للأستاذ سيد قطب

حين تفسد الفنون في أمة من الأمم تفسد فطرتها، والعكس صحيح، فما تفسد سليقة الأمة حتى تتبعها الفنون؛ ومن هنا كان اهتمامنا بمكافحة «الغناء المريض» لأننا نكره لهذا الشعب أن تفسد فطرته، كما نكره له أن يكون عنوان هذه الفطرة هو هذا الغناء

والموسيقى والغناء أمسُّ بضمائر الشعوب من سائر الفنون، فقد يكون الأدب كما يكون النحت والتصوير لغة جماعة من خواص المثقفين المدربين على الإحساس والفهم، أما الموسيقى والغناء فهما لغة البداهة والتعبير المباشر عن أعماق السليقة

نعم إن الطبائع تتفاضل في فهم الموسيقى والغناء والحس بهما، ولكن يبقى مع ذلك فارق أصيل بين السلامة — وهي أولى درجات الفنون، والمرض — وهو لا يلتبس على طبيعة مستقيمة أو فطرة سليمة

ونحن لا نتطلب من الملحنين والمطربين اليوم سمواً في التعبير عن الفطرة الإنسانية ولا امتيازاً في الإحساس على الجماهير، ولكنا نقنع فقط بالسلامة في الشعور الإنساني، بل نتواضع فنقنع بالسلامة الحيوانية، غير أننا لا نجد حتى هذا المطلب المتواضع فيما يذيعونه من أغنيات ولحون

ويبدو أننا مبالغون فيما نطلب من هؤلاء الناس، وأنه تكليف مجهد لطبائعهم وثقافتهم ذلك التكليف الذي نسومهم إياه. وإذا كانت هناك بارقة من أمل فلن تكون في محاولة توجيههم أو تقويم فطرتهم أو رفع مستوى إحساسهم؛ فذلك ما لم يتهيئوا له، ولكن المحاولة يجب أن تتوجه إلى وخز طبيعة هذه الأمة، فإن كان فيها خير عافت هذا الترجيع وانصرفت عن هذا الترنيم، وإلا فقد «وافق شن طبقة» وعفاء على الجميع!

ووجه المبالغة فيما نكلفه هؤلاء الناس أن الموسيقى والغناء مهما يكونا لغة الفطرة وتعبير البداهة، فهما في حاجة إلى طبائع سليمة، وتلك موهبة لا يؤتاها إلا القليلون وإن كانت تبدو حقاً مباحاً للجميع، وفي حاجة إلى ثقافة عقلية ونفسية كذلك وإلى فهم أو إدراك ما لهمة الفنون، وتلك شقة بعيدة على نشأة هؤلاء القوم، وآفاق لم يفتحوا أعينهم عليها ولم يتطلعوا مرة واحدة إليها.

الفن — شعراً كان أم تصويراً أم غناء أم موسيقى ... — هو «صورة الكون في نفس إنسان» وهو «تبلور الحياة في حس فنان» فهل ترى حين تقول هذا الكائن من كان من المشتغلين بالموسيقى والغناء في مصر يحسبك تتحدث بلغة مفهومة أم يفغر فاه عجباً من هذه اللغة الغريبة التي لم يسمع بها في لغة أبناء هذا الزمان ولم يحس لها تفسيراً في نفسه وهو يعالج ما يعالج من ألحان؟!

الموسيقى والتلحين، ها هذا الذي يدرسونه في معهد الموسيقى الشرقي من السلم الموسيقي والمسافات في النوتة والتوفيقات التوقيعية بين وزن القطعة التي بين يدي الملحن وبين النغمات التي تناسبها — أيا كان معنى هذه القطعة وجوها الفني فذلك آخر ما يفكر فيه الملحنون. فإن خرج (موسيقار مجدد) عن هذه الحدود، فإلى بعض الألحان الإفرنجية وبعض ألحان سيد درويش: سرقة واقتباساً وتمزيقاً وتشويهاً، وياليتها سرقة صريحة واضحة ولكنها «مرمطة» لهذه الألحان المسروقة حتى تلين وتتكسر وتتخلع وتناسب هذه الدغدغة الماجنة التي يدعونها تجديداً في التلحين

هذه وتلك آفاق المشتغلين بالموسيقى والغناء في مصر، فما تكون إذن «صور الكون في نفس إنسان وتبلور الحياة في حس فنان»؟ ما يكون هذا الكلام الذي يشبه الممبات والألغاز عند هذه النفوس الضعيفة الصغيرة، وهذه العقول المسكينة المحدودة؟!

بلغتني قصة طريفة عن مولد قطعة غنائية يتمتع بها شبان البلد وشوابه في هذه الأيام، ولست متأكداً من صحة جميع تفصيلات هذه القصة ولكنها ليست بعيدة التصديق ولا متعارضة مع المعروف عن هؤلاء «الفنانين»!

قال مغني القطعة لمؤلفها: ما رأيك في «مايهونش» ألا ترى أنها تكون «مؤثرة»؟ قال المؤلف: تكون! . قال المغني: وحياة أبيك تضع لنا عليها «طقطوقة» ... فكان!

هذه قصة لا أجزم بصحة تفصيلاتها هي بالذات ولكنها تتفق مع ما أجزم به من طريقة تأليف المقطوعات الغنائية وبواعثه وعن غناء. هذه القطع وأسبابه في نفوس المؤلفين والمطربين، فليست هذه البواعث أحاسيس نفسية تبث بالقطعة في نفس مؤلفها ألفاظاً وأوزاناً وفي نفس مغنيها نغمات وألحاناً

فكيف يتأتى إذن لهذه الأغاني أن تكون شعوراً إنسانياً كريماً، أو شعوراً حيوانياً وتلك بواعث القول والغناء عند هؤلاء وهؤلاء!

ولكنني أغمط التأليف الغنائي حقه حين أسوي بين مستواه ومستوى التلحين والغناء في هذه الأيام ، فنحن إذا تجاوزنا عن المؤلفين المحترفين الذين يطنون كالذباب حول المطربين والمطربات نجد آخرين من كرام الشعراء ومشهوري الأدباء قدموا بعض مقطوعاتهم للغناء ، ولكنها خرجت من يدي الملحن جثثاً هامدة بعد إخضاعها للنغمات المحفوظة والترنيم المعجوج

ولو سارت خطوات الموسيقى والتلحين في مصر على هدى خطوات الشعر ، لكان لنا فن موسيقي محترم ، ولكنا شيئاً في رقعة العالم العريضة التي تموج بالفنون الحية ، بينما نحن منها في الرميم

ولا زلت أذكر أن مطربة كبيرة مشهورة ذات صوت فريد في جوهره مستعد لأداء كل النغمات ، كانت تغني في مناسبة بهيجة قطعة تفيض ألفاظها غبطة ، ولكني كنت أتصورها هناك وراء « الميكروفون » وهي تعتصر دموعها اعتصاراً وتنوح نوح المفجّع المكلوم !

وإذا ذكرنا الأصوات فلنعترف مرة أخرى أن لدينا منها ثروة لم نحسن استغلالها بالتلحين ، كما لم نحسن استغلال ثروة التأليف ، فالتلحين هو علة العلل ، لأنه جوهر الإحساس الفني وموجّه الأصوات والأنغام ، وهو في أيدي هؤلاء الفارغين المشوهي الفطرة ، بل في يد هذا الحطام الآدمي الذي لا يقوى على إحساس الآدميين

وكل لفظ مؤدب عف لا يكفي لتصوير جريمة التلحين على بعض المطربات والمطربين ، وعلى سبيل المثال أذكر المطربة « أسمهان » ففي جوهر صوت هذه المطربة تعبير عن الدة الغريزة وفورة الجنس ، وهو في نظر المعدمين من التعبير السليم مثلنا مكسب كالكعكة في يد اليتيم ! لأن السلامة الحيوانية مطلب من المطالب البعيدة عنا في عالم الغناء ، ولكن التلحين المشوم لم ينتبه إلى هذه الخاصة في ذلك الصوت ، فما هي إلا أغنية أو أغنيتان تبدو فيهما حتى تتوارى وراء التلحين المريض الشائه والتكسرات المنشوشة التي ينفر منها حتى الحيوان السليم !

وبعد فما كان لنا أن نأمل شيئاً في محترفي الغناء والتلحين ، ولكن أملنا كله كما أسلفت في طبيعة هذه الأمة ، وفي ضمائر القلة القليلة التي « لم تشرب من النهر » أن يثيرها الاشمئزاز من كل ما ترجمه الأوتار والحناجر في هذه الأيام ، وأن تدفعها حوافز البشرية الحساسة ، فتقوم بالدعاية الواجبة في كل مجتمع وكل صحيفة ضد هذا الزيف المكرور

ولقد حدث للأستاذ « عبد الحميد يونس » المذيع بمحطة الإذاعة برنامجه المختار « نصف ساعة من الموسيقى الغربية » وهممت أن أرسل إليه — على غير معرفة — رسالة شكر وإعجاب بحسن اختياره للاسطوانات التي أذاعها ولولا أن صرفتني عن ذلك بعض المشاغل العارضة

وإني لأذكر ذلك اليوم علاجاً مضمون العاقبة للسامعين وجرعة منبهة إلى ما في الكون من تعبير رفيع عن المشاعر الإنسانية في الموسيقى العالية يجب تكراره وتكراره كل يوم ضمن برامج محطة الإذاعة لا بين الحين والحين

وإني لأخشى أن يكون وقف هذا البرنامج ثمرة لمسعى بعض المشهورين بالغناء المريض ، فقد كان في بعضه كشف لمواضع سرقاته وفي بعضه عرض لمثل حية رقيمة تعاف النفوس بجوارها فهم الرخيص .

سيد قطب

إعلان مناقصة

وزارة الزراعة بالدقي تطرح في المناقصة العامة عمل التعديلات المطلوبة بشفخانة تفتيش السرو لجعلها معملا للألبان وتقدم العطاءات داخل مظاريف مختومة بالشمع الأحمر ومصحوبة بتأمين ابتدائي قدره اثنان في المائة من قيمتها وستفتح المظاريف ظهر يوم ٣ مارس سنة ١٩٤١ بتفتيش السرو ومقره بجوار محطة طلمبات الأسكندرية الجديدة

والوزارة الحق في قبول أو رفض أي عطاء بدون إبداء الأسباب — وكل عطاء لا يكون مصحوباً بالتأمين الابتدائي لا يلتفت إليه

ويمكن الاطلاع على الاشتراطات وجميع ما يلزم من البيانات واستلام القوائم من مكتب هندسة وتفتيش السرو نظير مبلغ ٢٠٠ مليم للقائمة الواحدة ٧٧٨٦